

الاشتقاق الأكبر عند ابن جني

وإذا كان ابن جني - على ولوعه بهذا الاشتتقاق الكبير - "أو الأكبر كما يسميه" يترفق فيه ولا يبالغ، فقد تكلف بعضهم فيه وفي غيره تكلاً لا يطاق، فخرجو على مدلول اللفظ الأصلي، وتعسّفوا في التعليل والتفسير؛ فهذا حمزة بن الحسن الأصبهاني يقول في كتاب "الموازنة": "كان الزجاج يزعم أن كل لفظتين اتفقتا بعض الحروف، وإن نقصت حروف إحداهما عن حروف الأخرى، فإن إحداهما مشتقة من الأخرى؛ فتقول: الرَّحْلُ مشتق من الرَّحِيل، والثور إنما سمي ثوراً لأنه يشير الأرض، والثوب إنما سمي ثوباً لأنه ثاب" أي رجع "لباساً بعد أن كان غزلًا، حسيبه الله!"

وأمثال هذه المبالغات التي يظهر عليها التكليف حملت السيوطي على أن يقول عن هذا الاشتتقاق الكبير: "إنه ليس متعتمداً في اللغة، ولا يصح أن يستنبط به اشتتقاق في لغة العرب"، بل نجد ابن جني نفسه لا يسلم - رغم اعتداله وترفقه - من نقد السيوطي له في هذا الموضوع، إذ يتهمه بأنه توسع في هذا الاشتتقاق "بياناً لقوة ساعده، ورده المخالفات إلى قدر مشترك، مع اعترافه وعلمه بأنه ليس موضوع تلك الصيغ، وأن تراكيتها تفيد أحاجيًّا من المعاني مغايرة للقدر المشترك"؛ وأخيراً يفصل السيوطي هذا الباب برأيٍ معتدلٍ سديدٍ فيقول: "وسبب إهمال العرب له، وعدم التفات المقدمين إلى معانيه، أن الحروف قليلة، وأنواع المعاني المتفاهمة لا تكاد تتشاهي؛ فخصصوا كل ترکيب بنوع منها، ليفيدوا بالتراكيب والهيئات أنواعاً كثيرة؛ ولو اقتصروا على تغایر المواد، حتى لا يدلوا على معنى الإكرام والتعظيم إلّا بما ليس فيه شيء من حروف الإيلام والضرب - لمنافقها هما - لضيق الأمر جدًا، ولاحتاجوا إلى ألف حروف لا يجدونها" إلى أن يقول: "ففي اعتباره المادة دون هيئة التركيب من فساد اللغة ما بينت لك، ولا يُنكرُ مع ذلك أن يكون بين التراكيب المتشدة المادة معنى مشتركٌ بينها، هو جنس لأنواع موضوعها؛ ولكن التحيل على ذلك في جميع مواد التراكيبات كطلب لعنقاء مغرب".

ويحيل بعض الباحثين المعاصرین إلى القول بأن أصحاب الاشتتقاق الكبير "اقتبسوا فكرة تقليل الأصول من معجم العين "للخليل" وأمثاله؛ فقد سلك صاحب العين، وصاحب الجمهرة "ابن دريد"، وغيرهما، مسلكاً عجبياً في ترتيب الكلمات، فكان كلّ منهم حين يعرض لشرح كلمة من الكلمات يذكر معها تقلباتها، ويدرك معنى كل صورة من صورها دون التعرّض للربط بين دلالات تلك الصور، فهي طريقة إحصائية أو قسمة عقلية جاء إليها أصحاب هذه المعاجم بغية حصر كل المستعمل من كلمات اللغة، وخشية أن يند بعضها عن أذهانهم، فلما جاء أصحاب

الاشتقاق من أمثال ابن جني وابن فارس، ربطوا أيضًا بين دلالات تلك الصور، واستنبتوا معانٍ عامة مشتركة بينها، وسمى هذا بالاشتقاق الكبير".

وإذا كنااليوم - في سبيل تأييد هذه الحقيقة - لا نملك من الوثائق العلمية عن معجم "العين" إلّا قيلًا، لا يبل ظمأ ولا يشفى غليلاً ، فإن بين أيدينا معجم "الجمهرة" الذي سار فيه ابن دريد على هدي الخليل، واتبعه فيما شاع عنه من تقليل الأصول، وإن كان لابن دريد نظام خاص في سرد المواد لا مكان هنا للحديث عنه ولا للخوض فيه.